دور الحوار في مواجهة معضلات العصر:
قراءة قرآنية!

أ . إسماعيل ديم
المدير الإقليمي
لمكتب رابطة العالم الإسلامي بداكار

تمهيـــد:

تتسم العلاقات البشرية اليوم بحدة التوتر ووجود تحديات مشتركة تهدد الوجود الإنساني ، ويمكن أن نلمس هذه التحديات وتلك التهديدات خلال المعضلات التي نجمت عن سلوك الإنسان غير السوي الذي أفرز هذه الأدواء الاجتماعية المدمرة من تكديس السلاح وانتشار المخدرات وظهور أمراض فتاكة للإنسان والحيوان والبيئة والصراعات التي لا تهدأ حتى تشتعل من جديد.

وأمام هذه اللوحة القاتمة يتساءل العقلاء من البشر : أين المخرج؟ أو بالتعبير القرآني : أين المفر؟ وما الصيغة المثلى للخروج من المأزق المصيري؟

وأمام هذا الأفق المسدود يورد الحوار من منظور المنهج الإسلامي تصوراً متكاملاً وواقعياً لوضع الأسس الثابتة التي تشكل رؤية صحيحة ومنضبطة للعلائق الإنسانية السوية التي يحتل الإنسان في ظلها موقعه اللائق به .

الحوار تأصيلاً وأصولاً:

وقبل التعرض لما يمكن أن يقدِّمه الحوار المنطلق من المنهجية الإسلامية من حلول لتلك المشكلات التي ألمحنا إلى بعضها ، يحسن أن نشير إلى قضية محورية ألا وهي أن الحوار ليس مجرد طريقة آنية نلجأ إليها تحت وطأة الظروف الملتهبة، ومن ثم لا يكون الغرض منه إلاّ مجرد محاولة التنفيس لحالة محتقنة أو التخفيف من ثقل الضغوط الواقعة علينا .

فالحوار في الرؤية الإسلامية قضية مبدأ ثابت وخيار أصيل ومطرد لا يمكن تجميده أو التنازل عنه تحت أي ظرف من الظروف أو أي مبرر من المبررات .

وباستقراء النصوص المؤسسة للمنهج الإسلامي والتجربة التاريخية التي انبثقت من تلك النصوص ، نرى بجلاء أن هناك جملة من الأسس نستطيع في ضوئها التأصيل لمنهج الحوار في الفكر الإسلامي ولضيق المجال المتاح نكتفي بالإشارة إلى أبرز تلك الأسس في عجالة :

أولاً: الإسلام رسالة كلية ومفتوحة إلى البشرية كلها ، ومن أخص خصائصها الشمولية والديمومة ، وهي خصائص تقتضي ، من بين ما تقتضي ، الوصول إلى الآخر كاملة واضحة ومطالبته بالتالي باعتناق ما يدعو إليه من مبادئ ويبشر به من حقائق كونية ، غيبية ، حياتية ..

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:١٥٨)،

ثانياً : الاعتراف بالآخر كما هو، فالمفهوم الإسلامي للآخر يقوم على إثبات وجوده والقبول له بحق الاختلاف والمغايرة، بل ويذهب إلى حد افتراض ، رغم أنه موقن بامتلاك الحقيقة النهائية والكلية ، احتمال صواب الموقف المضاد ، ونعثر على هذه الحقيقة في العديد من النصوص القاطعة التي يزخر بها كتاب الله ومنها قوله تعالى ، وهو يأمر نبيه بانتهاج هذا اللون العالي من الحوار المتطلع للوصول إلى الصواب .

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤).

ثالثاً : نشدان الحقيقة لا المصالح

ومن الثوابت أن المطلب النهائي لعملية الحوار في المنهجية الإسلامية هو الوصول إلى الحق وليس الانتصار الشخصي أو مجرد دحر الخصم مهما بعدت المسافة بيننا.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ (آل عمران : ٦٤).

وقد دفع الفهم السديد لهذا النص وأضرابه من النصوص المؤصلة للحوار في المنهجية الإسلامية ، الإمام الشافعي إلى ابتكار هذه الرؤية العالية العجيبة في فقه الحوار:

" ما ناظرت أحدا إلاّ وسألت الله أن يظهر الحق على لسانه "

رابعاً : العدل والإنصاف ، فمن العقبات التي تجعل الحوار يتعثر أو لا يصل

إلى النتائج المتوخاة ، غياب هذا البعد المحوري عندما تنعقد أندية الحوار وتسلط غريزة « الأنا » التي تسد أبواب الحوار وتؤدي إلى سوء التفاهم

ومن أروع الأمثلة لذلك هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾ (الكهف).

وحتى عندما يشتط العدو سيبقى الفريق المنطلق من المنهجية الإسلامية ثابتا على المبدىء متمسكا بالخيارات الصحيحة رافضا الغش أو توظيف الأضغان :

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ٨).

خامسا : المشترك الإنساني ، ومن الموازنات الدقيقة التي أوجدتها المنهجية الإسلامية في إطار العلاقة مع الغير ، ضبط العلاقات الإنسانية على أساس الدوائر المتداخلة بأنساق ومقادير مضبوطة دائرة إثر دائرة.

وبعد دائرة الأخوة الإيمانية الخاصة :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات : ١٠).

رسم الإسلام الدائرة الكبرى والتي تضم البشرية ، وهنا كان التذكير الدائم للعلائق الإنسانية الحميمة من خلال مبدأي المنشأوالمصير :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١)

مطالب الحوار في إطار المنهجية الإسلامية:

في المنهجية الإسلامية لا يقبل منطق العبثية الذي يجعل الحوار مجرد ندوات وملتقيات واجتماعات دون وجود إرادة صلبة في التوصل إلى نتيجة، ومن هذا المنطلق يلوح لنا أن الحوار مع الآخر ، من المنظور الإسلامي، يجب أن يكون من بين مطالبه :

أولا : الوصول إلى الحقيقة ، وليس فرضها على الآخر، هو ما يهدف إليه الإسلام عن طريق إصراره على محاورة الآخر كائنا من كان هذا الآخر، وكان ذلك هو منهج الأنبياء والرسل في الحوار ومخاطبة الغير ، حوارا مبنيا على المنهجية والمنطق الذي لا يمكن أن ينكر حججه عقل سليم " إلا بالاعتراف والتسليم " ولذلك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم . ففي حوار لنبينا إبراهيم مع نمرود، بهت هذا أخيراً بالحجة المنطقية لنبينا إبراهيم قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة :٢٥٨).

ثانياً : تحقيق نظام العدالة الشاملة الذي يَسَعُ ظلها الإنسانية متجاوزا بذلك مشكلة الانحباس داخل تلك الزوايا الضيقة من فئوية أو حزبية أو عرقية أو جنسية .

ثالثاً : تحقيق القيم الإنسانية العامة ، وهي تلك القيم التي جاءت الأديان

السماوية بأصولها وتعارف عقلاء البشر على أنها من ضروريات الحياة لكي تستقر وتزدهر : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة : ٢).

رابعاً : الإطلاع على ما عند الآخر المحاور من مفاهيم وقيم وتجارب حياتية للاقتباس منها والانتفاع بها : « الحكمة ضالة المؤمن »

خامساً : إزالة أو تخفيف أسباب التوتر الذي يعكر الحياة ويحول دون التوصل إلى تبادل المنافع والمصالح ، من الأمر الذي يعتبره الإسلام من أهداف الحوار :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات : ١٣).

خيار مواجهة التحديات بالحوار:

فإذا تقرر ، في ضوء النصوص القاطعة الصريحة التي تخيرنا نماذج منها ، أن الحوار منهج إسلامي أصيل ، ألا يكون من الوارد هنا، ومن الوجهة الإسلامية كذلك، أن ننطلق من الحوار لطرح المبادرات الكبرى التي تكون قادرة على تقديم الحلول العملية التي تخلص الإنسانية من الويلات التي تحاصرها اليوم والتي هي في غالب الأحيان من صنع يدها كما يجلي ذلك كتاب الله :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم : الآية : ٤١)

ففي هذه الآية الكريمة خمس كليات يحسن التوقف عندها ولو على عجل:

- تشخيص للعلة التي تنخر في الكون "ظهر الفساد".
- تحديد لحجم الكارثة التي سماها القرآن بـ: "الفساد".
- ذكر واضح لأسباب العلة: "بما كسبت أيدي الناس".
- عرض للنتيجة المنطقية والحكمة المنشودة من وراء ظهور النتائج ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾.
- السلوك المنطقي الذي يجب أن يصدر عن العقلاء عند ظهور نتائج مدمرة من هذا النوع ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ومن المنطق الجلي أن يكون الجواب على ذلك السؤال الجوهري بالإيجاب، بل يمكن القول بأن الحوار يصبح أمام الواقع الذي نعيشه المخرج الوحيد من المصير الغامض الذي يهدد البشرية.

فالأرقام والحقائق المفجعة التي نملكها عن تلك التهديدات التي تواجهنا اليوم، من أمراض فتاكة تصيب البشر والحيوان، ومجاعة واختلال هائل في نظام البيئة من حولنا، وحروب لا مبرر لها، وتعديات مستمرة على الأديان السماوية وبالأخص الدين الإسلامي، وشذوذ منتشر، وعلاقات أسرية مفككة ... كل ذلك يحتم اليوم على العقلاء أن يستبقوا الخيرات ويستفيضوا من عقد موائد الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات، تنتج عنها رؤى واضحة ومواقف موحدة يمنع انتشار ما يمكن أن يحدث " فوضى عالمية "

مثلا ، فلنأخذ ظاهرة الإرهاب التي تصنف على أنها إحدى أخطر هذه المعضلات لنرى كيف يمكن للحوار أن يقدم حلا لها.

وتجاه هذه المعضلة ثمة إجماع على مسألتين فقط ، وهما: أن الظاهرة قائمة وليست مفتعلة وأنها تمس الجميع ولا تستثني أمة من الأمم ، وبذلك فهي ظاهرة عالمية .

لكن هناك خمسة أسئلة كبرى لم يرد الجواب عنها إلى الآن رغم المجهودات التي بذلت على مستوى الدول والمنظمات ، وهي :

ما هو الإرهاب ؟ من هو الإرهابي ؟ وما مصادر الإرهاب ؟ لماذا يمارسه من يمارسه ؟ كيف نعالجه؟

هذه الأسئلة الجوهرية لا يمكن الإجابة عنها بالطرق المتبعة حاليا ، والتي تتسم بالأحادية وفرض الرأي مع مصادرة الآراء المخالفة والاستعلاء الثقافي والحضاري ! وسياسية الكيل بالمكيالين الممارسة من قبل بعض دول أعضاء في الأمم المتحدة إلخ...

وهنا يبرز دور الإسلام وهو يطرح الحوار من خلال هذه الدعوة الصريحة:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة : ١١١).

وفي ضوء منهجيته المبينة على تلك الأسس المشار إليها سالفا يبدو بأن الإسلام دين حوار ولذا فالمسلم، وهو يخوض غمار الحوار مع الغير ، يجب أن يراعي القيم التي تضبط في مجال الحوار، ومن هذه القيم :

- حب الخير للآخرين ورفض الأنانية :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧).

- حسن الظن بالإنسان والثقة به .

- وضوح الموقف من المعكّرات التي يأباها العقل السليم والضمير الحي :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (سورة الأعراف ، الآية : ٣٣).

هذه نقطة خلاف تشكل المعضلة الكبرى التي تفصل الإسلام بل الأديان السماوية كلها- الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر - عن ما يعتبره الغرب اليوم " قيما حضارية " تحطم القواعد الأخلاقية وتتعدى حدود الله .

- الإصرار على مبدأ التغيير في الاتجاهين :

- تكريس النعم والمحافظة عليها :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الأنفال ، الآية : ٥٣).

- استعادة النعمة وأسباب الاستقرار عند فقدها :

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد ، الآية : ١١).

- الرفض الصارم للهيمنة والإصرار على المساواة:

﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة آل عمران ، الآية : ٦٤).

الخلاصة : توصيات ومقترحات :

هذه محاولة متواضعة ، قاصرة عن الإحاطة بأهم جوانب الموضوع .

ونرى أن الحوار الجاد الهادف القادر على توفير الأجواء الإيجابية والظروف المؤاتية يجب أن يرتكز اليوم على القيم المشتركة والمصالح العامة التي لا غنى عنها لتحقيق تعايش سلمي، بمعنى أنه يجب مراعاة ما لا يفرق وتجنب ما يفرق مع الحفاظ على الثوابت .

وعليه ، يمكن تركيز الحوار المعاصر على ما يلي :

١- الكليات، أو ما يمكن أن نسميه بالمشتركات الإنسانية من إحقاق الحق ونصرة المظلوم ، ورعاية حقوق الإنسان بشرط ألا تؤدي تلك الرعاية إلى الاعتداء على حقوق الغير .

٢- نشدان الحقيقة ، فمن المنطلقات الخاطئة الشروع في الحوار بنتائج محسومة سلفا أو بأحكام مسبقة .

٣- رعاية المصالح الكلية للشعوب ، فمن الأدواء التي تكاد اليوم تودي بالبشرية هذه الأنانية الحادة التي تجعل حفنة من البشر ترى في السواد الأعظم مجرد قطعان وفي الأرض والهواء والأجواء كلأ مباحا لها وحدها .

٤- رفض الإقصاء في إطار السعي إلى بناء منظومة حضارية نموذجية جديدة ، انطلاقا من المنهجية الإسلامية التي ترى أن الحياة البشرية

سلسلة ممتدة وأن ما تم إنجازه مشترك إنساني ولكل قوم نصيبهم من المغنم والمغرم .

٥- التواطؤ على مبدىء وضع الأديان والمقدسات والموروثات داخل ذلك المربع الخاص بحيث تكون في منأى من المساومة والابتزاز أو الابتذال .

٦- محاربة الفساد الخلقي والشذوذ ، وصيانة القيم المشتركة التي تدعو إليها الأديان السماوية .